فرش كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه :

قد مضى قولُنا في الوُفود والوافدات ومَقاماتهم بين يدي نبيّ الله ﷺ وبين يدي الخُلَفاء والملوك، ونحن قائلون بعَوْن الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مُخاطبة الملوك والتـزلّف إليهم بسِحْر البيان، الذي يُمازج الرُّوح لطافة، ويجرى مع النَّفَس رقّة؛ والكلامُ الرَّقيق مَصايد القلوب، وإن منه لما يَستعطف المُستَشيط غيظاً، والمُنْدَملُ حِقـدًا، حتى يُطْفِيء جَمْرة غيظه، ويَسُلَّ دفائن حِقْده؛ وإن منه لما يَستَميل قلبَ اللئيم، ويأخذ بسَمْع الكريم وبصره؛ وقد جعله الله تعالى بينه وبين خَلْقه وسيلةً نافعةً، وشافعاً مقبولاً؛ قال تبارك وتعالى: ﴿**فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التوابُ الرحيم**﴾(١).

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى مَن تخلّص من أُنشوطة الهَلاك وتفلّت من حبـائـل المنيّة، بحُسن التنصُّـل، ولَطِيف التـوصُّـل، وَلِـين الجـواب، ورَقِيق الاستعتاب، حتى عادت سَيِّآته حسنات، وعِيض بالثواب بدلاً من العِقاب.

البيـــان

كلُّ شيء كَشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدّى إلى الفهم ويتقبله العقل، فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، ومنّ به على عباده، فقال تعالى: ﴿**الرحمن علَّمَ القرآن خلق الإنسان علَّمَهُ البيان**﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ١ـ٤.

وسئل النبي ﷺ: فيم الجمال؟ فقال: «في اللسان» يريد البيان[١].

وقال ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»[٢].

وقالت العرب: أنفذُ من الرميَّة كلمة فصيحة.

وقال الرّاجز:

لقد خشيتُ أن تكون ساحراً رِوَايَةً طوراً وطوراً شاعرا

وقال سهل بن هارون:

العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: البيان بَصَرٌ، والعِيّ عَمى؛ كما أن العلم بَصَرٌ، والجَهل عَمَى. والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

وقال صاحب المَنطق: حَدُّ الإنسان: الحيُّ الناطق المُبين. وقال: الروح عِماد البدن، والعلم عِماد الرُّوح، والبيان عِماد العلم.

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قال النبي ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرمُوه»[٣].

وقالت العلماء: لايُؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.[٤]

---

(١) رواه العسكري عن العباس قال: قلت يارسول الله ماالجمال في الرجل قال: «فصاحة لسانه». وهو عند ابن لال بلفظ: «الجمال في الرجل اللسان». وفي إسناده محمد بن زكريا الغلابي وهو ضعيف جداً. ورواه الحاكم عن علي بن الحسين وهو مرسل قاله السخاوي في المقاصد [٣٧٠] وانظر العجلوني/ كشف الخفا [١٠٧٥] وقال ابن الديبع: له طرق كلها ضعيفة. انظر التمييز [٤٨٨] وانظر ضعيف الجامع [٢٦٣٣].

(٢) رواه مالك وأحمد والبخاري وأبوداود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما. وروى الإمام أحمد وأبوداود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً».

(٣) قال المناوي: قال الذهبي في مختصر المدخل طرقه كلها ضعيفة وله شاهد مرسل وحكم ابن الجوزي بوضعه وتعقبه العراقي ثم تلميذه ابن حجر بأنه ضعيف لا موضوع. انظر فيض القدير [٣٤٥]. وقال السخاوي بعد أن ذكر طرق الحديث: «وبهذه الطرق يقوى الحديث» المقاصد الحسنة [٥٠] وانظر العجلوني في كشف الخفا [١٨٠] والصحيحة [١٢٠٥].

(٤) بل هو حديث سيأتي.

اعتل الفضل بن يحيى، فكان إسماعيل بن صُبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يَزد على السلام عليه والدعاء له، ويُخفف في الجلوس، ثم يَلْقَى حاجبه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه، وكان غيره يُطيل الجلوس. فلما أفاق من عِلته قال: ما عادني في علتي هذه إلا إسماعيل بن صُبيح.

وقال أصحاب معاوية له:

إنا ربما جَلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك؛ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شِئتم.

وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلتُ: على بركة الله.

ودخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عَطَاك؟ قال: ألفين؛ قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان؛ قال: فلم لَحنت فيما لا يَلحن فيه مثلك؟ قال: لَحنَ الأميرُ فلحنت، وأعربَ الأميرُ فأعربت، ولم أكن ليَلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمُقرع له بلحنه، والمُستطيل عليه بفضل القول قبله. فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً.

قبلة اليد

ذكر عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نُقبِّل يد النبي ﷺ(١).

---

(١) قال الألباني: ضعيف، انظر ضعيف ابن ماجة باب الرجل يقبل يد الرجل [٨٠٧] - وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على ثبوت ذلك عن النبي ﷺ منها: حديث الزارع العبدي وكان في وفد عبد القيس قال: «فجعلنا نتبادر من رواحلنا نقبل يد النبي ﷺ ورجله». أخرجه أبو داود قال الألباني: صحيح انظر صحيح أبي داود [٤٣٥٤] وصحيح ابن ماجة [٤١٨٨].

وحديث أسامة بن شريك قال: «قمنا إلى النبي ﷺ فقبّلنا يده» قال ابن حجر سنده قوي.

ومن حديث جابر: «أن عمر قام إلى النبي ﷺ فقبّل يده» انظر ابن حجر/ فتح الباري ج١١ ص٥٩.

ومن حديث وكيع عن سفيان، قال: قال: قَبَّلَ أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب[1].

الشعبي قال:

ركب زيد بن ثابت، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال له: لا تَفعل يابن عمّ رسول الله ﷺ؛ قال هكذا: أُمِرنا أن نفعل بعُلمائنا؛ فقال له زيد: أَرِني يدَك؛ فأخرج إليه يده، فأخذها وقبَّلها، وقال: هكذا أُمِرْنَا أن نفعل بأهل بيت نبينا[2].

من كره من الملوك تقبيل اليد

العُتبي قال:

دخل رجلٌ على هشام بن عبد الملك فقبَّل يده؛ فقال: أفٍّ له، إن العرب ما قبَّلت الأيدي إلا هُلوعاً، ولا فعلته العجم إلا خُضوعاً.

واستأذن رَجُلٌ المأمون في تقبيل يده، فقال له: إنّ قبلة اليد من المسلم ذِلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تَذِلَّ، ولابنا أن نُخدع.

واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده؛ فقال: أما هذه فَدَعْهَا؛ قال: ما منعتَ عيالي شيئاً أيسر فقداً عليهم من هذه.

---

(١) انظر ابن حجر المصدر السابق.

(٢) انظر ابن حجر المصدر السابق. وقد أورد ابن حجر رحمه الله أقوال بعض أهل العلم واختلافهم في تقبيل اليد، فمالك أنكر ذلك وأجازه آخرون، وقال الأبهري: «وإنما كرهها مالك إذا كانت على وجه التكبر والتعظم، وأما إذا كانت على وجه القربة إلى الله لدينه أو لعلمه أو لشرفه فإن ذلك جائز».
وقال النووي: «تقبيل يد الرجل لزهده وصلاحه أو علمه أو شرفه أو صيانته أو نحو ذلك في الأمور الدينية لا يكره بل يستحب، فإن كان لغناه أو شوكته أو جاهه عند أهل الدنيا فمكروه شديد الكراهة» انظر فتح الباري ج١١ ص٥٩ ص٦٠ ويرى الشيخ الألباني جواز تقبيل يد العالم بشرط أن لا يتخذ عادة يتطبع العالم على مد يده إلى تلامذته. وأن لا يدعو ذلك إلى تكبر العالم على غيره وأن لا يؤدي ذلك لتعطيل سنة معلومة كسُنَّة المصافحة، انظر السلسلة الصحيحة الشرح والتعليق على حديث رقم [١٦٠] وقد تم حذف بعض الأحاديث والآثار المتعلقة بالالتزام والتقبيل وذلك لأنه سوف يأتي ذكرها في «باب الإذن في القبلة» ولا داعي لتكرارها.

obeikandl.com

حسن التوفيق في مخاطبة الملوك

قال هارون الرشيد لمَعْن بن زائدة: كيف زمانُك يامَعْن؟ قال: ياأمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان.

وهذا نظير قول سعيد بن سَلْم، وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من بَيْتُ قيس في الجاهلية؟ قال: ياأمير المؤمنين، بنو فزارة؛ قال: فمن بيتهم في الإسلام؟ قال: ياأمير المؤمنين، الشريف من شرَّفتُموه؛ قال: صدقت أنت وقومُك.

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له: كبرت يامَعْن؛ قال: في طاعتك ياأمير المؤمنين؛ قال: وإنك لجلد؛ قال: على أعدائك ياأمير المؤمنين؛ قال: وإن فيك لبقية؛ قال: هي لك ياأمير المؤمنين؛ قال: أي الدولتين أحبُّ إليك أو أبغض، أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك ياأمير المؤمنين، وإن زاد برُّكَ على برِّهِمْ كانت دولتك أحبَّ إليَّ، وإن زاد بِرُّهُم على بِرِّكَ كانت دولتهم أحب إليَّ؛ قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلُك؟ قال: هو لأمير المؤمنين ولي به؛ قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيب ماء؛ قال: فكيف هواؤه؟ قال: أصح هواء.

وقال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد: إنى أردتُك لأمر؛ قال: ياأمير المؤمنين، قد أعد الله لك مني قلباً معقودًا بطاعتك، ورأيًا موصولاً بنصيحتك، وسيفاً مشهوراً على عدوك، فإذا شئت فَقُلْ.

وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله؛ قال: ياأمير المؤمنين، إن مَدَحْتُه عِبْتَه، وإن ذممته اغتبته، ولكنه قِدْحٌ في كف مُثَقِّف ليوم نِضال في خدمة أمير المؤمنين.

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منبج[1]؛ قال: رقيقة الهواء، لينة

(١) منبج: مدينة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ.

الوطَاء؛ قال: فصف لي منزلك بها؛ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها؛ قالَ: ولِمَ وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثَرَهُ وأحذو مثاله.

ودخل المأمون يوماً بيت الديوان، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: مَنْ أنت ياغلام؟ قال: أنا الناشيء في دولتك، والمُتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك، الحسن بن رجاء؛ قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

ودخل عقال بن شَبَّة على أبي عُبَيْد الله كاتب المهدي، فقال: ياعقال، لم أرك منذ اليوم؛ قال: والله إني لألقاك بشوق، وأغيب عنك بتَوْق.

وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيْب بن رباح ـ وكان أسود ـ يا نُصَيْب، هل لك فيما يُثْمِرُ المحادثة؟ يريد المنادمة؛ فقال: أصلح الله الأمير، اللون مُرَمَّد، والشعر مفلفل، ولم أقعد إليك بكريم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل.

مدح الملوك والتزلف إليهم

ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة فقال: ياأمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الــدُّرُّ زان حُسْـــنَ وجـــوهٍ　　　كان للدُّرِّ حسـنُ وجهـك زَيْـنَـا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أُعطِيَ صاحبُكم مقولاً ولم يعط معقولا.

ذكر ابن أبي طاهر قال:

دخل المأمون بغداد فتلقَّاهُ وجوه أهلها، فقال له رجل منهم، ياأمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك، وزادك في نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تَقَدَّمْتَ من قبلك، وأتعَبتَ من بعدك، وأيَسْتَ أن يُعاين مثلك؛ أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقى

فلا نرجوه، فنحن جميعا ندعو لك ونثني عليك؛ خَصِبَ لنا جنابك، وعَذُبَ شرابُك، وحَسُنت نظرتك، وكَرُمَتْ مقدرتك؛ جبرت الفقير، وفككت الأسير، فأنت ياأمير المؤمنين كما قال الأول:

مازلت في البذل للنوال وإطـ ـلاقٍ لعانٍ بجرمه عَلِقُ
حتى تمنى البَرَاءُ أنهم عندك أسرى في القيد والحلق

وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرت لا أستكثر كثيرك، ولا أستقل قليلك؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أكثر من كثيرك، ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك.

وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ قال: ياأمير المؤمنين، المديح كله دون قدرك، والشعر فيك فوق قدري، ولكني أستحسن قول العتابي:

ماذا عسى مادح يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فُتَّ المدائحَ إلا أن ألسننا مُستنطقات بما تخفى الضمائر

مدح خالد بن صفوان رجلا فقال: قريع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتاً قئولا، يهنأ الجرَب، ويداوي الدَّبَر(١)، ويُقِلّ الحزّ، ويُطَبِّقُ المفْصَل، لم يكن بالبَرِم في مروءته، ولا بالهذر في منطقه، متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار

دخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يُضاحك ابنه المأمون، فقال: اللَّهُمَّ زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده؛ فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأجوده، ومن الحديث أصحَّهُ وأبلغه، ومن البيان أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ قال سهل: ياأمير المؤمنين، ما ظننت أن أحداً تقدمني سبقني إلى هذا

---

(١) الدَّبرَ: جمع دبرة وهي قرحة الدابة.

المعنى؛ فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتُك أمسَ خير بني لُؤيّ ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضِعْفاً ... كذاك تزيد سادةُ عبد شمسِ

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: ياأمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحَدٌ أخفَّ على الحجاج ولا أحبَّ إليه منه.

حدث الشيباني قال:

أقام المنصور صالحاً ابنه، فتكلم في أمر فأحسن، فقال شبيب بن شيبة: تالله ما رأيت كاليوم أبين بياناً، ولا أعرب لساناً، ولا أربط جأشاً، ولا أبَلَّ ريقاً، ولا أحسن طريقاً، وحق لمن كان المنصور أباه، والمهديُّ أخاه، أن يكون كما قال زهير:

هو الجواد فإن يَلْحَقْ بشأوهما ... على تكاليفه فمثله لحِقَا
أو يسبقاه على ما كان من مَهَلٍ ... فمثل ما قَدَّمَا من صالحٍ سَبَقَا

وخرج شبيب بن شيبة من دار الخلافة يوماً فقيل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

وقيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدُّ له، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح. قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعّده المِنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: فمنها الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبَه منه صولتَهُ ومَضَاءه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءَه، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حُسنه وبهاءه، ثم نزل.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تَكلم بحاجتك؛ قال: ياأمير المؤمنين، بُهر الدَّرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك؛ قال: فعَلى رِسلك، فإنا

لا نحب مدح المُشاهدة، ولا تزكية اللقاء؛ قال: ياأمير المؤمنين، لست أمدحك، ولكن أحمد الله على النعمة فيك، قال: حسبك فقد أبلغت.

ودخل رجل على المنصور، فقال له: تكلم بحاجتك؛ فقال: يبقيك الله ياأمير المؤمنين؛ قال: تكلم بحاجتك، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين؛ قال: والله ياأمير المؤمنين، ما أستقصر أجلك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتنم مالك، وإن عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزين، وما لأمريء بذل وجهه إليك نقصٌ ولا شين. قال: فأحسن جائزته وأكرمه.

حَدَّثَ العُتبي عن سفيان بن عيينة قال:

قدم على عمر بن عبد العزيز ناسٌ من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوش[1] للكلام، فقال: أكبِرُوا أكبِرُوا؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنه ليس بالسِنِّ، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من هو أسَنُّ منك؛ فقال عمر: صدقت رحمك الله، تكلم؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنَّا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمَّنَنَا الله بِعَدْلِكَ من جورك؛ قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر؛ قال: فنظر محمد بن كعب القَرظي إلى وجه عمر يتَهَلَّل، فقال: ياأمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم. فألقى عمر رأسه على صدره.

التنصل والاعتذار

قال النبي ﷺ: «**من لم يقبل من مُتَنَصِّلٍ عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يَرِدْ على الحوض**»[2].

---

(١) يتحوش: يتأهب.

(٢) أورده السيوطي في اللآلي المصنوعة ٢/١٠٤ دار الكتاب العربي بمصر وفي مسند أبي حنيفة بلفظ: «**من لم يقبل عذر مسلم يعتذر إليه فوزره كوزر صاحب مكس**». وقال القاري بعد شرح الحديث والحديث رواه ابن ماجه والضياء عن جودان بلفظ: «**من اعتذر إليه أخوه بمعذرة فلم يقبلها كان** =

وقال ﷺ: «المعترف بالذنب كمن لا ذنب له»[١]. وقال: «الاعتراف يهدم الاقتراف»[٢].

وقال الشاعر:

إذا ما أمرؤ من ذنبه جاء تائباً ... إليك فلم تغفر له فَلَكَ الذنبُ

واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهديّ فقال: قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب.

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال إبراهيم الموصلي:

سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل مِنْ تأخُّر حاجة ضمنها له وهو يقول: أحتجُّ إليك بغالب القضاء، وأعتذر إليك بصادق النيَة.

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جعفر ما أحسنَ العَفْوَ كُلَّهُ ... ولا سِيَّما عن قائلٍ: ليس لي عذر

وقال آخر:

اقبل معاذيرَ من يأتيك معتذرًا ... إن بَرَّ عندك فيما قال أو فَجَرا

فقد أطاعك من أرضاك ظاهِرُهُ ... وقد أجلَّكَ من يعصيك مستترا

خير الخَليطين من أغضى لصاحبه ... ولو أراد انتصارًا منه لانتصرا

وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعة العذل.

وقال الأحنف بن قيس: رُبَّ ملومٍ لا ذنب له.

وقال آخر:

= عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس». انظر شرح مسند أبي حنيفة ص ٣٧٠

(١) رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود بلفظ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».
قال السخاوي حسنه ابن حجر لشواهده انظر المقاصد الحسنة [٣١٣] وانظر فيض القدير [٣٣٨٥] وصحيح الجامع [٣٠٠٨].

(٢) لم أقف عليه.

لعــل لـه عُـذرًا وأنت تلــومُ

وقال حبيب:

الـبِرُّ بي منك وَطَّى العُذر عِنْدَكَ لي ... فيــما أتــاك فلم تَقْـبَــلْ ولم تَلُمِ
وقـام علمُـك بي فاحتـج عنـدك لي ... مقــام شاهـدِ عدلٍ غيرَ مُتَّـهَـمِ

وقال آخر:

إذا اعتـذر الجـاني محا العُـذرُ ذَنْبَـهُ ... وكُـلُّ أمريء لا يقبل العُذْرَ مُذْنِبُ

ولنـا في هذا المعنى:

عذيريَ من طُوْل البُكَا لوعةُ الأسى ... وليس لمن لا يقبـل العُـذْرَ من عُذْرِ

وقال آخر:

فهـبـني مسيئـاً كالــذي قلت ظالمـاً ... فعفـواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكـن للعـفــو عنـدك لِلَّذِي ... أتــيــتُ به أهــلاً فأنـت له أهـلُ

ومن الناس من لا يرى الاعتذار ويقول: إياك وما يُعتذر منه.

وقالوا: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبا.

وقال الشاعر محمود الوراق:

إذا كان وجــه العُــذر ليس بِبَــيِّنٍ ... فإن اطّـراح العُـذر خير من العُـذر

قال ابن شهاب الزهري:

دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سِنًّا، فقـال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقـال: لقـد كان أبوك وعَمُّك نَعَّاقين في فتنة ابن الأشعث؛ فقلت: ياأمـير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم يُعدِّد، وإذا صفح لم يُثرِّب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بَحْرٌ لا تكَدِّرُه الدِّلَاءُ. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة ابن الزبير حتى مات.

obeikandl.com

ودخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور، وكان واجداً عليه، فقال له: تكلم بحُجَّتك؛ فقال: لو كان لي ذنب تكلمت بعذري، ولكن عفو أمير المؤمنين أحب إليَّ من براءتي.

وأُتِيَ موسى الهادي برجل، فجعل يُقرِّعه بذنوبه؛ فقال: ياأمير المؤمنين إن اعتذارَي مما تقرعني به ردّ عليك، وإقراري به يلزمني ذنباً أجْنِه، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة ... فلا تَزْهَدَنْ عند المعافاة في الأجر

سُعِي بعبد الملك بن الفارسيّ إلى المأمون، فقال له المأمون: إن العدل من عدَّله أبو العباس، وقد كان وصفك بها وصفك به، ثم أتتني الأخبار بخلاف ذلك؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الذي بلغك عني تحميل عليّ، ولو كان كذلك لقلت: نعم، كما بلغك، فأخذت بحظي من الله في الصِّدق، ورجوتُ فضل أمير المؤمنين في سعة عفوه؛ قال: صدقت.

وأقبل المنصور يوماً راكباً والفرجُ بن فضالة جالسٌ عند باب الذهب، فقام الناس إليه ولم يقم، فاستشاط المنصور غيظاً وغضباً ودعا به، فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت، ويسألك عنه لم رضيت، وقد كرهه رسول الله ﷺ: فَسَكَنَ غضبه وقَرَّبه وقضى حوائجه.

الاستعطاف والاعتراف

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي ـ وهو الذي يقال له ابن شِكْلة ـ أمر بإدخاله عليه، فلما مَثُلَ بين يديه، قال: وَلِيُّ الثأر محكَّمٌ في القِصَاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعل الله كل ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقك. قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك، فأشارا عليَّ به؛ قال: أمَّا أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك، وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله، ثم استعبر باكياً؛ قال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جَذَلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته؛ ثم قال: ياأمير

المؤمنين، إنه وإن كان جُرمي يبلغ سفك دمي، فَحِلْمُ أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب؛ قال المأمون: لو لم يكن في حَقِّ نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك، لبلغك إليه حسن توصلك، ولطيف تنصلك.

وكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحاق والعباس ألطف في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما.

العُتبي قال: حدثنا طارق بن المبارك عن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة قال: جاءت دولة المسوِّدة، وأنا حديث السن كثير العيال متفرق المال، فجعلت لا أنـزل قبيلة من قبائل العرب إلا شُهِرتُ فيها، فلما رأيت أمري لا يكتتم، أتيت سليمان بن علي، فاستأذنت عليه قربَ المغرب، فأذن لي وهو لا يعرفني، فلما صرت إليه، قلت: أصلحك الله، لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك، فإمَّا قبلتني غانماً، وإما رددتني سالماً؛ قال: ومن أنت؟ فانتسبت له، فعرفني، وقال: مرحباً، اقعد، فتكلَّمْ غانماً؛ قلت: أصلحك الله، إن الحُرَمَ اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا، قد خِفْنَ بخوفنا، ومن خاف خيف عليه؛ قال: فاعتمد سليمان على يديه، وسالت دموعه على خديه، ثم قال: يابن أخي، يَحْقِنُ اللهُ دمك، ويستر حرمك، ويسلم مالك إن شاء الله، ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. فلم أزل في جوار سليمان آمنا.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد، ياأمير المؤمنين، فإنَّا إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم، ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دَفَّتْ إليَّ منهم دافة[1]. لم يشهروا سلاحاً، ولم يكثروا جمعاً، وقد أحسن الله إليك فأحْسِن، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أماناً ويأمر بإنفاذه إليَّ فليفعل.

فكتب لهم كتاباً منشوراً، وأنفذه إلى سليمان بن علي في كل من لجأ إليه من بني أميَّة.

(١) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد. ودفت: أتت وأقبلت.

ودخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد، فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد، فقال متمثلا:

أريد حياته ويريد قتلي عَذيرُك من خليلك من مُرادِ

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع[١]، وعارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد وقع، فأقلَعُ عن براجم بلا معاصمٍ[٢]، وجماجم بلا غلاصم[٣]، فمهلاً مهلا، فبي والله يسهل لكم الوعر. ويصفو لكم الكدر؛ وألقت إليكم الأمور مقاليد أزمتها، فالتدارك التدارك قبل حلول داهيةٍ خَبُوطٍ باليد لَبُوطٍ بالرِّجْل. قال عبدالملك: أفذًّا ما تكلمت أم توأماً ياأمير المؤمنين؟ قال: بل فذّاً؛ قال: اتق الله في ذي رَحِمك، وفي رعيتك التي استرعاك الله، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد محضتُ لك النصيحة، وأدَّيتُ لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يَلَمْلَمْ، وتركت عدوك سبيلاً تتعاوره الأقدام، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، إن الكتاب لنميمةُ واشٍ وبغي باغ، ينهش اللحم، ويلغ في الدم، فكم ليلٍ تمام فيك كابدته، ومقامٍ ضَيِّق فرَّجته، وكنت كما قال الشاعر أخو بني كلاب:

ومقامٍ ضَيِّقٍ فرّجتُه بلساني ومقامي وجَدَلْ
لو يقوم الفيل أو فيَّالُهُ زَلَّ عن مثل مقامي وزَحَل

فَرَضِي عنه ورحب به، وقال: وَرِيَتْ بك زنادي.

وبعث بعض الملوك إلى رجل وجد عليه، فلما مَثُل بين يديه قال: أيها الأمير، إن الغضب شيطان، فاستعذ بالله منه، وإنما خُلق العفو للمذنب، والتجاوزُ للمُسيء، فلا تضق عما وَسِعَ الرعية من حلمك وعفوك. فعفا عنه، وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مسلم أبا مجلز على بعض الأمر، قال: أصلح الله الأمير، تثبت

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وهمع: سال وانصب.

(٢) البراجم: مفاصل الأصابع؛ الواحدة: برجمة (بالضم).

(٣) الغلاصم: جمع غلصمة (بالفتح). والغلصمة: رأس الحلقوم، وهي الموضع الناتيء في الحلق.

فإن التثبتَ نصفُ العفو.

وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته. فلما مُثِّلَ بين يديه، قال: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر مَنْ بُرْئِي أحبُّ إليه من سقمي، وبراءتي أحبُّ إليه من جرمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَدَ عليه: ياأمير المؤمنين، إن القدرةَ تُذْهِبُ الحفيظة، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة، ونحن مقرون بالذنب، فإن تعفُ عني فأهل ذلك أنت، وإن تعاقبني فأهل ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة رَوْح بن زِنْبَاع، فقال: أَنْشُدُكَ الله ياأمير المؤمنين أن تضع مني خسيسة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها، أو تُشْمِتَ بي عدواً أنت وقمته، إلاّ أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي؛ فقال معاوية: خلِّيَا عنه، إذا أراد الله أمرًا يسَّرَه.

دخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي جعفر المنصور بعد ما كتب أمانه، فقال: ياأمير المؤمنين، إن إمارتكم بِكْر، ودولتكم جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنبوهم مرارتها، تخف على قلوبهم طاعتكم، وتسرع إلى أنفسهم محبتكم، ومازلت مستبطئاً لهذه الدعوة. فلما قام قال أبو جعفر: عجباً مِنْ كُلِّ من يأمُرُ بقتل هذا!

قال أحمد بن أبي دُوَاد: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه كان تَغَلَّبَ على شاطيء الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مَثُلَ بين يديه، دعا بالنِّطْعِ والسيف، فأُحْضِرَا؛ فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يصَعِّدُ النظر فيه ويصوبه، وكان جسيماً وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره؛ فقال؛ ياتميم، إن كان لك عُذرٌ فأت به، أو حجة فأدْلِ بها؛ فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كُلَّ شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ياأمير المؤمنين، إن الذنوب تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة، وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بإمامتك، وأشبههما بخلافتك، ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنِّطعِ كامِناً — يُلاحظني من حينما أتلَفَّتُ
وأكبر ظني أنَّكَ اليوم قاتلي — وأيُّ أمرِيءٍ مما قضى الله يُفلِتُ
ومن ذا الذي يُدْلي بعذرٍ وحُجَّةٍ — وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يَعِزُّ على الأوس بن تغلب موقفٌ — يُسَلُّ عليَّ السيفُ فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني — لأعلم أن الموت شيءٌ مُؤقَّتُ
ولكن خلفي صبيةٌ قد تركتهم — وأكبادُهُم من حسرةٍ تتفتت
كأنِّي أراهم حين أُنْعَى إليهم — وقد خمشوا تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطة — أذود الردى عنهم وإن مِتُّ مُوِّتوا
فكم قائلٍ: لا يُبْعِدُ الله روحه — وآخر جذلان يُسَرُّ ويشمت

قال: فتبسم المعتصم، وقال: كاد والله ياتميم أن يسبق السيف العذل، اذهب فقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية.

أبو الحسن المدائني قال:

لما حج المنصور مَرَّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليَّ بجعفر بن محمد؛ قتلني الله إن لم أقتله، فمطل به، ثم ألح عليه فحضر، فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين يديه، همس جعفر بشفتيه؛ ثم تقرب وسلم؛ فقال: لا سَلَّم الله عليك ياعدو الله، تُعمل عليَّ الغوائل في ملكي، قتلني الله إن لم أقتلك؛ قال: ياأمير المؤمنين، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه، أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظُلِمَ فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحق من تأسى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه ملياً، وجعفر واقف، ثم رفع رأسه فقال: إليَّ أبا عبد الله، فأنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، السليم الناجية، القليل الغائلة، ثم صافحه بيمينه، وعانقه

obeikandl.com

بشماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله، ثم قال: ياربيع، عجِّل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه. قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه؛ فقال: ما أرانا ياربيع إلا وقد حبسنا؛ فقلت: لا عليك، هذه مِنِّي لا مِنْهُ؛ فقال: هذه أيسر، سَلْ حاجتك؛ فقلت له: إني منذ ثلاثٍ أدفع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلى عنك، وأنا خادم سُلطان، ولا غنى لي عنه، فأحب منك أن تُعلمنيه؛ قال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بحفظك الذي لا يرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها علي قَلَّ لك عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتليت بها قَلَّ عندها صبري فلم تخذلني؛ اللهم بك أدرأ في نحره، وأستعيذ بخيرك من شره، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المدائني قال:

كان يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكرًا، ثم قال: ياأمير المؤمنين، كن كنَبيّ الله ﷺ، ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وقدر فغفر؛ قال: ومن أنت؟ قال: يزيد ابن راشد. فعفا عنه.

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله. فأطلقه.

ومر أسد بن عبد الله القسري، وهو والي خراسان بدار من دور الاستخراج ودهقان يُعَذَّبُ في حبسه، وحول أسد مساكين يستجدونه، فأمر لهم بدراهم تُقسم فيهم؛ فقال الدهقان: ياأسد، إن كنت تُعْطي من يُرْحم فارحم من يُظْلم، فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم؛ يا أسد، احذر من ليس له ناصر إلا الله، واتق من لا جُنة له إلا الابتهال إليه، إن الظلم مصرعه وخيم، ولا تغتر بإبطاء الغيثات من

ناصر متى شاء أن يجيب أجاب، وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً. فأمر أسد بالكف عنه.

وقال عبيد بن أيوب، وكان يطلبه الحجاج لجناية جناها، فهرب منه وكتب إليه:

أذِقني طعمَ النَّومِ أو سَلْ حقيقةً   عليّ فإن قامت ففصِّل بنانيا
خلعت فؤادي فاستطار فأصبحت   تَرَامى به البيد القفار تراميا

ولم يقل أحد في هذا المعنى أحسن من قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

أتاني أبيت اللعن أنَّك لُمتني   وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامع
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ   من الرُّقش في أنيابها السُّم ناقِعُ
أكلَّفْتَني ذنبَ امريءِ وتركتَهُ   كذي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتعُ
فإنَّك كالليل الذي هو مُدركي   وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

وقال فيه أيضاً:

ولَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمّهُ   على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذبُ
فإن أك مظلوماً فعبدٌ ظلمته   وإن تك ذا عُتْبٍ فمثلك يُعْتِبُ
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريْبَةً   وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِّي جنايةً   لَمُبلغك الواشي أغشُّ وأكذَبُ
ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب
فإنَّك شمسٌ والملوكُ كواكب   إذا طلعت لم يبْدُ منهنَّ كوكبُ

قال ابن الطثرية:

فهبني أمراً إمَّا بريئاً علمتَهُ   وإمَّا مسيئاً تاب منه وأَعتَبَا
وكنت كذي داءٍ يُبَغِّي لدائه   طبيباً فلما لم يجده تَطَبَّبَا

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات لما أحسَّ بالموت وهو في حبس المتوكل برُقعة إلى المتوكل، فيها:

هي السبيل فمن يومٍ إلى يوم   كأنَّه ما تُريك العين في النوم
لا تعجلنَّ رويداً إنما دول   دُنْيَا تَنَقَّلُ من قوم إلى قوم
إنَّ المنايا وإن أصْبَحْتَ ذا فرحٍ   تحوم حولك حوماً أيما حَوْمِ

فلما وصلت إلى المتوكل وقرأها، أمر بإطلاقه، فوجدوه ميتاً.

جرى بين أبي مسلم صاحب الدعوة وبين قائد من قواده يقال له شهرام كلام، فقال له قائده كلمة فيها بعض الغِلَظ، ثم ندم على ما كان منه، فجعل يتضرع ويتنصل إليه؛ فقال له أبو مسلم: لا عليك، لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب شيطان، وأنا جَرَّأتك عليَّ بطول احتمالي منك، فإن كنت للذنب متعمدًا، فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً، فإن العذر يسَعك، وقد عفونا على كل حال. فقال: أصلح الله الأمير، إن عفو مثلك لا يكون غروراً؛ قال: أجل؛ قال: فإن عظم الذنب لايدع قلبي يسكن، وألح في الاعتذار؛ فقال له أبو مسلم: عجباً لك، إنك أسأتَ فأحسنتُ، فلما أحسنتَ أأسيء!

وقال المنصور لمعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن واعتسافك عليهم إلا حقاً؟ قال: كيف ذلك ياأمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار، وأنشده البيت وهو:

معن بن زائدة الذي زيدت به ... فَخرًا إلى فخر بنو شَيبانِ

قال: نعم ياأمير المؤمنين، قد أعطيته ألف دينار، ليس على هذا البيت، ولكن على قوله:

مازلت يوم الهاشمية معلمًا ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فَمَنعت حوزته وكنت وقاءهُ ... من وقع كل مهند وسنان

قال: فاستحيا المنصور وجعل ينكت بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد.

تذكير الملوك بذمام متقدم

قال ثمامة بن أشرس للمأمون لما صارت إليه الخلافة: إنه كان لي أملان: أملٌ لك وأملٌ بك، فأما أملي لك فقد بلغتُه، وأما أملي بك فلا أدري ما يكون منك فيه؛ قال: يكون أفضل ما رجوت وأملت، فجعله من سُماره وخاصته.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر كتب إليه رجلٌ من إخوانه:

إنَّا بطانتُك الآلى كُنَّا نكابد ما تكابد
ونُرى فنُعْرَفُ بالعَدَا وة والبعاد لمن تباعد
ونبيتُ من شفق عليك رَبيئةً والليلُ هاجِد
هذا أوان وفاءِ ما سَبقت به منك المواعِد

فوقع أبو جعفر على كل بيت منها: صدقت صدقت، ثم دعا به وألحقه بخاصته.

وقال حبيب الشاعر في هذا المعنى:

إن أولى الموالي أن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحَزَنِ
إن الكرام إذا ما أسْهَلُوا ذَكَرُوا من كان يألفهم في الموطن الخشن

حسن التخلص من السلطان

كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام إليه أصغر القوم، فقال له: يامعن، أتقتل الأسرى عطاشاً؟ فأمر لهم بالماء، فلما سُقوا، قال: يامعن، أتقتُلُ ضِيفانك؟ فأمر معن بإطلاقهم.

لما أتى عمر بن الخطاب بالهُرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه، فأمر بقتله، فلما عُرض عليه السيف، قال: لو أمرت لي ياأمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظمأ؛ فأمر له بها، فلما صار الإناء بيده قال: أنا آمن حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده، وقال: الوفاء ياأمير المؤمنين نورٌ أبلج؛ قال: لك التوقف حتى أنظر في أمرك، ارفعا عنه السيف؛ فلما رُفع عنه؛ قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقال له عمر: ويحك! أسلمت خيرَ إسلام، فما أخّرك؟ قال: خشيت ياأمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي إنما كان جزعاً من الموت؛ فقال عُمر: إنّ لفارس حُلومًا بها استحقت ما كانت فيه من المُلك. ثم كان عُمر يشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه.

وأمر مُصْعَبُ بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن يضرب عنقه؛ فقال: أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به، فأتعلق بأطرافك، وأقول: أي رَبِّ، سَلْ هذا فيم قتلني؛ قال: أطلقوه فإني جاعل ما وهبت له من حياته في خفض، أعطوه مائة ألف؛ قال الأسير: بأبي أنت وأمي، أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً؛ قال: ولم؟ قال: لقوله:

إنما مُصعبٌ شهابٌ من الله ... تَجلَّت عن وجهه الظلماءُ
مُلكه مُلك عِزةٍ ليس فيه ... جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
يَتَّقي الله في الأمور وقد أفـ ... ـلح مَن كان همَّه الاتقاءُ

أمر عبد الملك بقتل رجل؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إنك أعزُّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله؛ فعفا عنه.

الهيثمُ بن عدي قال: أُتي الحجاج بحَرُورِيَّة، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير، وَنَكِّل بها غيرها. فتبسمت الحرورية؛ فقال لها: لم تبسمت؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فِرعون خيرًا من وزرائك ياحجاج، استشارهم في قتل موسى، فقالوا: أرجِه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي؛ فضحك الحجاج، وأمر بإطلاقها.

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول: إنَّ الحسين بن علي ابن عم رسول الله ﷺ ابن رسول الله، لتأتِيَنِّي بالمخرج مما قلت أو لأضربن عنقك؛ فقال له ابن يعمر: وإن جئت بالمخرج فأنا آمِن؟ قال: نعم؛ قال: اقرأ: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾[1] إلى قوله: ﴿**ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى**﴾[1] إلى قوله: ﴿**وعيسى**﴾ [1]. فمن أقرب: عيسى من إبراهيم، وما هو ابن بنته، أو الحسين من محمد ﷺ؟ فقال له الحجاج: والله لكأني ما قرأت هذه الآية قط، وولاّه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٥.

أبو عوانة عن عاصم بن أبي وائل قال: بعث إليَّ الحجاج فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل إليَّ الأمير حتى عرف اسمي؛ قال: متى هبطت هذا البلد؟ قلت: حين هبط أهله؛ قال: ما تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما لو تبعتهُ كفاني؛ قال: إني أريد أن أستعين بك في عملي؛ قلت: إن تستعن بي تستعن بكبير أخرق ضعيف يخاف أعوان السوء، وإن تدعني فهو أحب إليَّ، وإن تقحمني أتقحَّم؛ قال: إن لم أجد غيرك أقحمتك، وإن وجدت غيرك لم أقحمك؛ قلت: وأخرى، أكرم الله الأمير، إني ما علمت الناس هابوا أميرًا قط هيبتهم لك، والله إني لأتعارّ[1] من الليل فما يأتيني النوم من ذِكرك حتى أصبح، هذا ولست لك على عمل؛ قال: هيه، كيف قلت؟ فأعدت عليه؛ فقال: إني والله لا أعلم على وجه الأرض خلقا هو أجرأ على دَم مني، انصرف. قال: فقُمت فعدلت عن الطريق كأني لا أبصر؛ فقال: أرشدوا الشيخ.

العُتبي قال: دخل جامع المحاربي على الحجاج ـ وكان جامع شيخاً صالحاً خطيباً لبيباً جريئاً على السلطان، وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم. فقال له جامع: أما إنه لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. وقال الحجاج: ما أرى أن أرد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف؛ قال: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار؛ قال الحجاج: الخيار يومئذ لله؛ قال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله؛ فغضب وقال: ياهناه، إنك من محارب؛ فقال جامع:

وللحرب سُمِّينا وكنا مُحارباً ... إذا ما القَنا أمسى من الطَّعن أحمرا

فقال الحجاج: والله لقد هممت بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك؛ قال

(١) التعَارّ: السهر والتقلب على الفراش أو الأرق.

جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن غششناك أغضبنا الله، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله؛ قال: أجل وسكن. وشُغِلَ الحجاج ببعض الأمر، فانسل جامع، فمر بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق، فأبصر كبكبة فيها جماعة من بكر العراق، وقيس العراق، وتميم العراق، وأزد العراق، فلما رأوه اشرأبوا إليه، وقالوا له: ماعندك؟ دفع الله عنك؛ قال: ويحكم؛ عُمُّوه بالخلع كما يعمكم بالعداوة، ودعوا التعادي ما عاداكم، فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاديتم، أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي، وأيها القيسي هو أعدى لك من التغلبي، وهل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم. وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، واستجار بزفر بن الحارث فأجاره.

العتبي قال: لما أُتِيَ بابن هبيرة إلى خالد بن عبد الله القسري وهو والي العراق، أتي به مغلولاً مقيداً في مدرعة، فلما صار بين يدي خالد ألقته الرجال إلى الأرض؛ فقال: أيها الأمير، إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بها على من قبلك، فأنشدك الله أن تستنَّ فيَّ بسُنَّة يَسْتَن بها فيك مَنْ بعدك. فأمر به إلى الحبس؛ فأمر ابن هبيرة غلمانه فحفروا له تحت الأرض سردابا حتى خرج الحفر تحت سريره، ثم خرج منه ليلاً وقد أعدت له أفراس يُداولها، حتى أتى مَسْلَمة بن عبد الملك، فاستجار به فأجاره، واستوهبه مسلمة من هشام بن عبد الملك فوهبه إياه. فلما قدم خالد بن عبد الله القسري على هشام وجد عنده ابن هبيرة، فقال له: إباق العبد أبقت؛ قال له: حين نِمت نومة الأمَة.

فقال الفرزدق في ذلك:

لما رأيت الأرض قد سُدَّ ظهرُهَا ... فلم يبق إلا بطنها لك مَخْرَجَا
دعوت الذي ناداه يونس بعد ما ... ثوى في ثلاث مُظلماتٍ فَفَرَّجا
فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة ... وما سار سَارٍ مثلها حين أدْلجَا
خرجت ولم تَمنُنْ عليك شفاعةُ ... سوى حَثّك التقريب من آل أعوجا

ودخل الناس على ابن هبيرة بعد ما أمنه هشام بن عبد الملك يهنئونه ويحمدون له رأيه، فقال مُتمثلاً:

من يلق خيراً يحمد الناسُ أمره ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما

ثم قال لهم: ما كان قولكم لو عرض لي أو أدركت في طريقي؟

عبد الله بن سوار قال: قال لي الربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مسلمة؟ قلت: نعم؛ قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على وضوئه، فجاءه، فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة؛ قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصُب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح صائح من وراء الرُّواق: أنا بالله وبالأمير؛ فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة، اخرج إليه. فخرجت إليه ورجعت فأخبرته؛ فقال: أدخله، فدخل؛ فإذا رجل يَميد نُعاسا، فقال أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله؛ ثم قال: أنا بالله وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله، حتى قالها ثلاثا؛ ثم قال: أنا بالله، فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضئه وليُصَلِّ، ثم أعرض عليه أحب الطعام إليه فأته به وافرش له في تلك الصُفَّة ـ لصفة بين يدي بيوت النساء ـ ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام، فقال: شربة سَويق، فشرب، وفرشت له فنام؛ وجئت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: ياأمير المؤمنين، لي حاجة؛ قال: قُضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة؛ قال: رضيت ياأمير المؤمنين، ثم قام منصرفاً، حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: ياأمير المؤمنين، عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء؛ قال: لا استثني عليك؛ قال: فهو ابن هُبيرة. فعفا عنه.

فضيلة العفو والترغيب فيه

كان للمأمون خادم، وهو صاحب وضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه، إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ المأمون عليه، فقال: ياأمير المؤمنين، إن الله يقول: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾. قال: قد كظمت غيظي عنك. قال: ﴿**والعافين عن**

الناس﴾. قال: قد عفوت عنك. قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾. قال: اذهب فأنت حر.

أمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: ياأمير المؤمنين، إن الله قد فعل ما تحب من الظفر، فافعل ما يحبه من العفو.

الأصمعي قال: عزم عبد الله بن علي على قتل بني أمية بالحجاز، فقال له عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: إذا أسرعت بالقتل في أكفائك، فمن تباهي بسلطانك، فاعف يعف الله عنك.

دخل ابن خُريم على المهدي، وقد عتب على بعض أهل الشام، وأراد أن يُغزيهم جيشاً، فقال: ياأمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خيرٌ لك من أن تُطيعك طاعة خوف.

أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك، فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق؛ قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان وزر كان عليَّ دونك، فخلى سبيله.

كلم الشعبي ابن هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستهم بباطل فالحق يُطلقهم، وإن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم.

العتبي قال: وقعت دماء بين حيّين من قريش، فأقبل أبو سفيان، فما بقي أحد واضع رأسه إلا رفعه، فقال: يامعشر قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضلُ من الحق؟ قال: نعم، العفو، فتهادن القوم واصطلحوا.

وقال هُزَيم بن أبي طَحْمَة ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب: ما ظُلم أحد ظلمك، ولا نُصر نصرك، فهل لك في الثالثة نَقُلها؟ قال: وما هي؟ قال: ولا عفا عفوك.

وقال الأحنف بن قيس : أحقُّ الناس بالعَفو أقدرهم على العُقوبة.

وتقول العرب في أمثالها: ملكت فأَسجِح، وارحم ترحم، وكما تدين تُدان، ومن بَرَّ يوماً بُرَّ به.

بُعْد الهمة وشرف النفس

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبيد الله: ألا أوصي بك الأمير زيادًا؟ قال: ياأبت، إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت.

ومن أعز الناس نفساً وأشرفهم هممـاً الأنصار، وهم الأوس والخزرج ابنا قيلة، لم يُؤدوا إتـاوة قط في الجـاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تُبع يدعوهم إلى طاعته، ويتوعدهم إن لم يفعلوا أن يغزوهم. فكتبوا إليه:

العبد تُبَّعُ كم يروم قتالنا ... ومَكانه بالمنزل المُتذلل

فغزاهم تُبع أبو كرب، فكانوا يُقاتلونه نهارًا ويخرجون إليه القِرَى ليلاً، فتذمم من قتالهم ورحل عنهم.

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتجهَّم له كأنه لا يعرفه؛ فقال له الفرزدق: وما تعرفني ياأمير المؤمنين؟ قال: لا؛ قال: أنا من قوم منهم أوفى العرب، وأسود العرب، وأجود العرب، ، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب؛ قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك؛ ولأهدمن دارك؛ قال: نعم ياأمير المؤمنين، أما أوفى العرب، فحاجب بن زُرارة، الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها؛ وأما أسود العرب، فقيس بن عاصم، الذي وفد على رسول الله ﷺ فبسط له رداءه، وقال: هذا سيد الوبر؛ وأما أحلم العرب، فعتاب بن ورقاء الرياحي؛ وأما أفرس العرب، فالحريش بن هلال السعدي؛ أما أشعر العرب، فأنذا بين يديك ياأمير المؤمنين. فاغتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره، وقال: ارجع على عَقبيك، فما لك عندنا شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا ... إليك ولا من قلة في مجاشع

وقال الأحوص في الفخر، وهو أفخر بيت قالته العرب:

ما من مصيبة نكبة أُرْمَى بها ... إلا تُشرفني وترفع شاني

وإذا سألت عن الكِرام وجدتني ... كالشمس لا تَخْفَى بكل مكان

وقال أبو عبيدة: اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر، فأخرج إليهم بُرْدَى محرق، وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما فقام عامر بن أحيمر السعدي فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر؛ فقال له النعمان: بم أنت أعز العرب؟ قال: العِز والعدد من العرب في معد، ثم في نِزار، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فليُنافرني؛ فسكت الناس. ثم قال النعمان: هذه حالك في قومك، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وخال عشرة، وعمّ عشرة؛ وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الأرض، ثم قال: من أزالها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل. فلم يَقُم إليه أحد، فذهب بالبُردين.

وكانت هُنيدة بنت صعصعة عَمَّة الفرزدق تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي يحل لها أن تضع خمارها عندهم فصِرمتي[1] لها: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزِّبرقان بن بَدر، فسميت ذات الخمار.

مراسـلات الملـوك

زُهير عن أبي الجُويرية الجَرمي قال:

كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قِبلة له، وعمن لا أب له، وعمَّن لا عشيرة له، وعمَّن سار به قبرُه، وعن ثلاثة أشياء لم تُخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وابعث إليّ في هذه القـارُورة ببـزر كل شيء، فبعث معـاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس. فقال ابن عباس: أما ما لا قِبلة له فالكعبة؛ وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم؛ وأما من سار به قبره فيُونس؛ وأما ثلاثة أشياء لم تُخلق في رَحِم: فكبش إبـراهيم، وناقة ثمود، وحيَّة موسى؛ وأما شيء، فالرجل له عقل يَعمل بعقله؛ وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي

---

(١) الصرمة: (بالكسر) مجموعة الإبل ما بين العشرين والثلاثين.

ذَوي العقول؛ وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره؛ وملأ القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتابُ والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة.

نعيم بن حماد قال:

بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتابًا فيه: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته ابنةُ ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران يُنبتان العُود والأَلُوة[1] والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثنى عشر ميلا، إلى مَلِك العرب الذي لا يُشرك بالله شيئاً، أما بعد، فإني قد بعثت إليك بهدية وما هي بهدية، ولكنها تحية، وأحببت أن تبعَث إليَّ رجلا يعلمني ويفهمني الإسلام، والسلام، يعني بالهدية الكتاب.

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيوف قَلعية، وكلاب سيورية، وثياب من ثياب الهند؛ فلما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصُفوا صفين، ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحِدَق، وأذن للرسل فدخلوا عليه، فقال لهم: ماجئتم به؟ قالوا: هذه أشرف كسوة بلدنا، فأمر هارون القطاع بأن يقطع منها جلالاً ربراقع كثيرة لخيله، فصلب الرسل على وجوههم، وتذمموا من ذلك ونكّسوا رؤوسهم؛ ثم قال لهم الحاجب: ما عندكم غيرُ هذا؟ قالوا له: هذه سُيوف قلعيَّة لانظير لها. فدعا هارون بالصَّمصامة سيف عمرو بن معد يكرب، فقطعت به السيوف بين يديه سيفاً سيفا، كما يُقَطُّ الفجل، من غير أن تنثني له شفرة، ثم عرض عليهم حدَّ السيف فإذا لا فل فيه، فصلب القوم على وجوههم؛ ثم قيل لهم: ما عندكم غير هذا؟ قالوا: هذه كلاب سيورية لا يلقاها سبع إلا عقرته؛ فقال لهم هارون: فإن عندي سَبْعًا فإن عقرته فهي كما ذكرتم؛ ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم: فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا:

(١) الألوة: ضرب من العود يُتَبَخَّرْ به.

ليس عندنا مثل هذا السبع في بلدنا؛ قال لهم هارون: هذه سِباع بلدنا، قالوا: فنرسلها عليه، وكانت الأكلب ثلاثة، فأرسلت عليه فمزَّقته، فأعجب بها هارون، وقال لهم: تمنَّوا في هذا الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به سُيوفنا؛ قال لهم: ما كان لنبخلَ عليكم، ولكنه لا يجوز في ديننا أن نُهاديكم بالسِّلاح، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف؛ قال: لا سبيل إليه، ثم أمر لهم بتُحف كثيرة وأحسن جائزتهم.

openeikandl.com